# البحث عن طريق جديد

# للرواية المصرية والعربية المعاصرة*

من يتقصى التحولات البالغة الاهمية للرواية المصرية العربية يكتشف ان أبرز مجدديها وانشطهم بعض كتاب الشباب في الستينات الذين أحدثوا تغيرات اساسية في مبنى ومعنى القصة القصيرة ، بحيث اصبحت ابرز واكثر الاشكال الادبية قدرة جمالية وفكرية . لتجسيد وتحليل ونقد المهمات التاريخية والروحية ، في فترة التغيرات الحاسمة التي عاشتها الحركة الوطنية والاجتماعية .

## عبدالرحمن ابو عوف

ولقد سبق ان درسنا وحللنا هذا النشاط الابداعي في مجال القصة القصيرة ، وانتهينا من رصده الى تنبؤ بان قدرات وامكانيات القصة القصيرة سوف تضيق يوما عن امكانية حصاد التعدد ، والتباين ، والتناقض فيطبيعة المرحلة التاريخية وازماتها ، بحيث تتهيأ حساسية الابداع لدى الموهوبين من كتاب القصة القصيرة للتحول لشكل اكثر رحابة وقدرة على تكثيف وتحليل ورسم اللوحة العريضة للتغيرات ، بمعنى محدد ، كانت عملية البحث عن شكل جديد للرواية المصرية قضية مطروحة تحتاج مغامرة واستعدادا وثقافة وحساسية .

وأول شروط تحقيق احتياجات هذه القضية الفكرية والجمالية هي تجاوز الطريق المستهلك الذي سلكته الرواية المصرية ، أقصد الرواية الاجتماعية الوصفية المستوفية الشروط في الحبكة ورسم شخصيات نمطية، والسرد الالي للزمن بمفهوم خارجي ، دون تقص لنفوس الشخصيات او لطبيعة الجو ، والمكان والزمان . واهم من ذلك وجود خلفية فكرية ، وراء عملية الابداع الروائي . ولكننا لا يمكن ان نغفلَ هنا التطورات الهامة في الانجاز الجمالي والمعماري الذي قدمه كل من نجيب محفوظ ، والطيب صالح ، وجبرا ابراهيم جبرا ، وحنا مينه ، وحليم بركات ، وعبد الرحمن منيف ، وفاضل عزاوي وغسان كنفاني .

فلا جدال ان طريق الرواية العربية الذي سلكه هؤلاء الروائيون كان تطويرا وتأسيسا لشكل وفن الرواية العربية ودليلا على نضجها واستطاعتها بلوغ مرحلةالتأهيل، وتجاوز المراهقة الفكرية والجمالية .

فالرواية لدى ( نجيب محفوظ ) قد اصبحت مرآة تتجول في تاريخ وزمن وحضارة المجتمع المصري والعربي، وتقدم وصفا مجازيا بانوراميا لكل المشكلات الروحية والسلوكية التي يعانيها ، ثم انه قد خلق من الحارة المصرية مكانا اسطوريا تعالج فيه كل المشكلات الانسانية برحابة واصالة وبصوته الخاص . في حين كان الطيب صالح تجديدا حساسا لنوع من خلق عالم اسطوري له لغته التي تكاد تقترب من شفافية التصوف ، فخلق من ( دومة ودحامد ) عالما ساحرا خلط فيه الواقع بالحلم العيني والاسطوري ، الشخصي واللاشخصي ، وتتابعت سلسلة اعماله ( عرس الزين ) و ( موسم الهجرة الى الشمال ) و ( ضو البيت ) و (مريود) كملحمة روائية غنية بأفانين السرد الروائي ، والروح الفلسفي ، والنغمة والرصيد الاسطوري ، وخلقت تاريخا وجدانيا لطبيعة ونوعية وجوهر الشخصية السودانية ، في بحثها عن نفسها ، وفي تجاوزاتها لامكانياتها المحددة .

اما كل من ( جبرا ابراهيم جبرا ) و ( غسان كنفاني) و ( حليم بركات ) فقد ابرزت اعمالها بتعدد مستوياتها ومواقفها الفكرية والسياسية مأساة الفلسطيني وغربته، ومشكلاته في الارض المحتلة ، وفي الهجرة والشتات . وصورت اعمال ــ غسان كنفاني ــ فاعلية النضال اليومي، وصلابة الفلسطيني الذي اكتشف ان طريق الهجرة طريق مسدود ، في حين ان طريق النضال والدم هو طريق

● هذا المقال فصل من كتاب بعنوان « واقع الرواية العربية المعاصرة ... يصدر قريبا في القاهرة .

المستقبل ، حيث ينتزع الفلسطيني حقه وارضه بالبندقية. بينما اختارت اعمال ( جبرا ابراهيم جبرا ) في روايات: ( صراخ في ليل طويل ) ، و (صيادون في شارع ضيق ) و ( السفينة ) ، واخيرا رواية ( البحث عن وليد مسعود ) ، اختارت ازمة المثقف الفلسطيني المغترب ، الباحث دوما عن فهم وتقصي جذور ازمته، وأزمة شعبه، والحالم دوما بالفردوس المفقود ، غير انها غالت كثيرا في وضع هذه المفاهيم في اطار تركيبات معقدة ، من البناء الروائي المتصنع العذوبة ، وركزت كثيرا على قضايا ميتافيزيقية واسطورية ذات دلالة عن الجنس ، كمعنى ومجاز للضياع، والعقم، وفقدان الجذور عند الفلسطيني المغترب الهارب من معركته الاساسية وسط شعبه ، وشاركه في هذا الاتجاه ( حليم بركات ) في روايتيه ( ستة ايام ، عودة الطائر الى البحر ).

وكل هذه الاعمال الروائية تشكل جسرا ومعبرا للتطور الجديد الذي احدثته اجيال جديدة شابة معاصرة في الرواية العربية .

غير ان ما يهمنا، التركيز عليه في هذه المقالة هو ـ البحث عن مدى هذا التطور في مفاهيم البناء الروائي، ودلالة الزمن الروائي ، واستحداث اشكال تجريبية لها اصالتها وتفردها . ولقد تحقق جزء كبير من هذه المهمات على ايدي جيل الروائيين المصريين الجدد امثال صنع الله ابراهيم ، سليمان فياض ، جمال الغيطاني، ويحيى الطاهر عبدالله ، يوسف القعيد ، مجيد طوبيا ، عبد الحكيم قاسم ، محمد البساطي ، الخ ..

## ١ ـ عن صنع الله ابراهيم ومرارة ازمة جيل الستينات

قدم صنع الله ابراهيم في روايته (تلك الرائحة) معالم الطريق الجديد الذي تميزت به مرحلة الرواية الجديدة في مصر ، لقد حطم السرد الرتيب ، والحبكة المصنوعة ، ورسم الانماط الروائية،والاستغراق في التحليل والوصف والحوار، بل جعل روايته قطعة صارخة من الصراحة الداكنة التي تبلغ حد التطرف ، في تناولها كل ندوب وتآكل الواقع النفسي والحياتي ، الذي يحاصر معتقلا سياسيا خارجا من السجن الى المجتمع الذي ترتفع فيه أصوات زاعقة عن شعارات العدالة والاشتراكية والتحرر والوحدة .

انها مونولوج طويل حزين يقدم في حضور متوتر كئيب ، اختيارات معاشة للانا المحبطة بعد التمرد والثورة، حيث تبدأ في استعادة عناصر اللوحة الاجتماعية بكل تناقضاتها وزيفها : الخروج من السجن ، والبحث عن مأوى وعمل وبداية جديدة ، وحلم بالاستمرار ، ماذا حدث للرفاق ، من استسلم بعد نصف المسيرة ؟؟ من لعبته لعبة التوازن السياسي والاحتواء ... كل ذلك يشكل في النهاية أزمة جيل الستينات الذي عاش مرارة الاغتراب في واقع يدعي كل من يتحدث باسمه انه واقع المستقبل والامل .

ولقد التقينا في رواية ( صنع الله ابراهيم ) الثانية ( نجمة اغسطس ) بالراوية نفسه بملامحه وسماته الفكرية والسياسية في موقف اجتماعي اكثر تحديدا ، وهو رحلته الى مدينة اسوان ، ليعايش التجربة الفذة والحلم المستحيل في بناء مصر الصناعية، حيث تبني (السد العالي) ليوفر الكهرباء ، والارض ، وليتحول مجرى النيل ، هذا الانجاز الحضاري الضخم الذي طالما داعب حلم الثوريين والتقدميين ، يعايشه ـ الانا ـ نفس الشخص الذي دفع من عمره سنوات ، في السجن ، والاعتقال ، في مزاوجة رائعة ، بين الذكريات السوداء للمعتقل والانتقال،والانفعال لرصد مظاهر الحياة الجديدة في اسوان . حول بناء السد تتم فصول رواية ( نجمة اغسطس ) ، وهي نوع جديد من الرواية التسجيلية ، ورواية التحقيق الصحي ، ورواية التحليل لمعنى اللحظة التاريخية بكل تناقضاتها ، حيث تطل العيون البوليسية ترقب الراوية وهو يتنقل في اسوان ويلتقي ببعض الزملاء القدامى ، مهندس بالسد توقف نشاطه السياسي ، لكنه ما زال يستفسر عن اخبار الزملاء، ويقدم الكاتب عبر رحلته جانبا من وصف طبيعة ونوعية شخصية السوفييت ، ابناء روسيا وهم يلتحمون في ود وحب مع الصعايدة وابناء مصر ، في انجاز هذا العمل الضخم ، ورغم ما يشوب هذا الوصف والتجسيد من رؤية من الخارج ، لم تتعمق جوانب وتناقضات النفسية والعادات والسلوكيات الاخلاقية للشعبين غير ان الرواية تقدم جانبا اخر من أدب الرحلة . في وصف القرى القديمة الاصلية بابنيتها ، ورائحة حياتها الاثرية ، والتي تطل على النيل من أعالي اسوان حتى ابو سنبل، وتتصاعد هذه الرؤية الوصفية متجاوزة البعد الاجتماعي المحدد الى نوع من التأمل الفلسفي لكبرياء وشموخ فن العمارة والنحت الفرعوني ، والمزاوجة بين هذا التراث الفني من البناء وبناء الحاضر والمستقبل المتجسد في السد العالي. ان أبناء واحفاد الفراعنة ، البناة العظام ما زالوا يحافظون على تراثهم في البناء والتشييد ، ولكن ثمة شرخ هنا في محاولة الاسترجاع التاريخي التي قام بها ( صنع الله ابراهيم ) في المقارنة بشكل من التعسف والخارجية دون اي تبرير او اقناع فني ، وبرغم ذلك فان هذه النغمة النشاز لا تمنع من الاحساس الثقيل بالمراقبة والمباحثية التي نحسها في متابعة حركة الرواية ، مما يدل على بقاء ما يهدد امن وحرية الاختيار والعمل للشخصية المصرية المعاصرة .

## ٢ ـ عن جمال الغيطاني وجدل التاريخ واستخداماته في فن الرواية

يعتبر ( جمال الغيطاني ) من وجوه الرواية المصرية المعاصرة ، ولا جدال أن روايته الاولى ( الزيني بركات ) كانت دليلا على تفرده وتميزه في اكتشاف صوته الخاص. في اعطاء نوع من الرواية الواقعية النقدية ، المستندة على وعي بجدل التاريخ الاجتماعي والحضاري لمدينته العريقة ( القاهرة ) تستخدم بحريات واعية موسعة كل التقاليد التي وضعها مؤرخو الفترات السوداء من حياة القاهرة في العصر المملوكي ، وتتحول هنا هذه التقاليد، برائحتها ، ولغتها ، وبنائها ، وسردها ، الى رصيد يغني عملية السرد الروائي ، وبناء المواقف والشخصيات ، وتكوين الموضوع والوصول به رغم هذا الثوب التاريخي الى المعاصرة والى معانقة ومواجهة مشكلات العصر الملحة في شجاعة ووعي ، وواقعية نقدية لها بصيرتها الجدلية بمعرفة اتجاه المستقبل ، ولعل اوضح امثلة المعاصرة التقاط الروائي بحماسة مشكلة المشاكل في المرحلة المعاشة ، وهي التجسس والبوليسية والمراقبة والرصد لسلوك الناس ، واحالة هذه المشكلة الى لغة تاريخ الفترة المملوكية باطلاق لفظ ( البصاصين ) على اجهزة الرصد والتجسس ، و ( ديوان البصاصين ) هو الحاكم الآمر الناهي في دولة المماليك ، ثم انه تعرض لمشكلة الانتهازي وصعوده سلم الدرجات الاجتماعية في شخصية ( المحتسب ) ، وتعرض في الجانب الاخر لعوامل الثورة والتمرد في اروقة الازهر ، والمواجهة من جانب الفقراء وحرافيش واهالي الحواري والازقة ، كل ذلك يتم في اطار بناء روائي يحاكي نفس سمت المساجد المملوكية بتقسيماتها المعمارية ، فليس هناك فصول ولا أقسام، بل سرادقات واروقة ومآذن وقباب ، تحولت في هيبتها الى لغة فن روائي عذب اصيل ، له رائحة التاريخ ، وسخونة الحاضر .

وقد قدم ( جمال الغيطاني ) ، بعد ذلك ، عملين روائيين يشكلان اتصالا وانفصالا في نفس الوقت ، عن خطورة واهمية اكتشافه الخاص ، في كتابة رواية فذة، لها صوتها الخاص ، كما قلنا، وتعبيرها السرديوالجمالي المميز عنده ، كما حدث في ( الزيني بركات ) .

لقد كتب رواية ( وقائع حارة الزعفراني ) والسبب، في اعتقادي ، ان ( جمال الغيطاني ) بدأ حياته الابداعية، كأمهر الاصوات الجديدة المتطورة لمدرسة الواقعيةالنقدية في فن القصة القصيرة . وكان قد قدم مجموعته الباهرة ( اوراق شاب عاش منذ الف عام ) سنة ١٩٦٩ التيتكشف عن نضج ووعي بمفاهيم الجماليات القصصية للقصة الواقعية النقدية ، حيثركز عدسته القصصية علىارضية الطبقات المسحوقة في السلم الطبقي ، وصور وجسد وحلل وحلم مع الفئات الشعبية ، في حواري القاهرة ، بكل ما يعيشون فيه من قهر وابتذال وتخلف وبؤس ، غير انه اتخذ في تعبيره اسلوب الواقعية النقدية المختلطة احيانا بالفانتازيا ، والخلط بين الحلم والواقع ، الوهمي والحقيقي ، وتقصي رؤية مدرسة التاريخ المملوكي كما قلنا ، ومنذ هذه المجموعة انشطر العالم القصصي والفني عند ( جمال الغيطاني ) الى طريقين : طريق الواقعية المعاصرة الرحبة ، التي تستخدم في حرية كل الوسائل المعاصرة في السرد الفني ، بحيث تستخدم حيل كل الفنون ومنها اسلوب السيناريو او التقطيع الفيلمي ـ والمونتاج . وطريق استعادة واستعارة اسلوب كتب المؤرخين للفترة المملوكية ، وعبق وسحر بقايا اثار ومدلولات المعمار ، وبقايا رواسب الحياة في حيالحسين والازهر والدراسة ، وكانت رواية ( الزيني بركات ) استمرارا لهذا الاتجاه بينما كانت (وقائع حارة الزعفراني) استمرارا لاتجاه الواقعية النقدية .

غير انه في رواية ( وقائع حارة الزعفراني ) تعثر في بناء تماسك فني وفكري بين تفجيره وتأملاته لركام الواقع الشعبي في حارة عتيدة بكل نماذجها الشعبية الحية ، واحداث حياتها الرئيسية والمثيرة ، لقد اراد ان يحول مادة الواقع الهلامية الى بعد فانتازي ، يتحدث عن العقم ، والخسة ، واغتيال البراءة ، غير ان حدود واقانيم الفانتازيا قد افلتت من سيطرة ادواته التعبيرية ، التي جاءت في أجزاء منها مترهلة ميلودرامية ، في بناء الحدث الروائي ، طويلة ومسطحة في سردها ، قلقة ومتسكعة في لغتها .

ويبقى من اعمال ( جمال الغيطاني ) جانب منالابداع يعطيه مزيدا من التميز عن ابناء جيله من كتاب القصة والرواية . واقصد به نوع الرواية والقصة التسجيلية عن تفصيلات وخبايا معارك الاستنزاف والحرب التي أعقبت هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ ، لقد اتيحت له الفرصة ، كمراسل حربي في الجبهة ، ان يرصد ويسجل ويحلل ويجمع معلومات وخبرات حية عن طبيعة وجوهر المعارك العنيفة التي عاشها الجيش المصري منذ العدوان الاسرائيلي .

وكانت رواية (الرفاعي) عام ١٩٧٨ ذروة متابعاته في هذا اللون من ادب الفاعلية التاريخية ، أدب الانسان والحرب ، الانسان في مواجهة الموت ، وهي تسجيل تفصيلي واعادة تجميع وتحليل وتأمل ، لشخصية المقاتل المصري في اشرف معاركه الحربية المعاصرة ، معركة العبور في ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ولقد بنى ( جمال الغيطاني ) هذا العمل على قصة واقعية هي حياة واستشهاد (العقيد الرفاعي) ، التي سجلت الملفات والتقارير والوقائعوالاخبار روعة ادائه وكفاءته العسكرية ، في معارك الاستنزاف ، هو ومجموعته القتالية التي أثارت الرعب في قلب العدو، ولا جدال ان بناء هذه الرواية الوثائقية المدعومة بالتشوف

للحظات المقاومة والقتال ، تعتبر تطويرا لاتجاهات الرواية المصرية العربية ، وتشكل شهادة عن تحولات الرؤية الواقعية في الرواية ، وفن الابداع الادبي ، حيث تصبح الرواية تعبيرا عن فن المواجهة مع الواقع ، واداة لفعل واع ، ولفهم المدى العميق والواعي لمتناقضات الواقع في ذروة احتدامه .

غير أن هذا النضج في رواية ( الرفاعي ) قد سبقته محاولات دؤوبة واصيله ، في مجموعات سابقة ، دارت محاورها القصصية حول حرب الاستنزاف ، وقسوة الحياة ورعبها التي تعرضت له مدن القنال : بور سعيد، والاسماعيلية والسويس ، وايضا قدمت شرف وصدق وشجاعة المقاومة والاحتمال عند الشعب المصري ، في دفاعه عن حضارته ، وشخصيته المستقلة ، واستمراره في بناء حياته وطموحاته رغم خسة وقسوة ونذالةالمؤامرة الاستعمارية الصهيونية القائمة حتى الان . ولقد قدم الكاتب تجربته التي تشكل قدرا من الشهادة والوثائقية عن هذه الفترة الحساسة والحاسمة من حياة شعبنا في كل من مجموعاته القصصية ( ارض ارض ) ١٩٧٢ ، ( الحصار من ثلاث جهات ) ١٩٧٥ ( حكايات الغريب ) ١٩٧٦ .

وكل من هذه المجموعات الثلاث يستحق دراسة تحليلية ، تكشف ما فيها من جهد وصدق ووعي ، وربما كان ابرز ما تضيفه لفن القصة المصرية والعربية ، هو القدرة على تحويل الحدث والخبر والفعل المعاصر ، الاتي واللحظي ، الى جزء من سيولة الزمن الابدي، بمعنى فلسفي، تطمح بعض قصص هذه المجموعات الثلاث ، في تحويل اللحظة الى جزء من الزمن الذي يكشف عن تقدم انسانية الانسان ، وصموده ضد عوامل القهر ، والتآكل، والاستغلال ، والخوف ، والجمود ، ان ابطالها اناس بسطاء . من لحم ودم مدينتنا ، ومن جسد شوارعها الزاخرة بالحياة والحيوية ، واحداثها من شبكةالعلاقات اليومية ، ذات السيولة والمعنى ، والدفء الانساني . كل هذه البانوراما الانسانية ، تتحول ، وتتشكل ، وتتصاعد ، تحت رؤية واقعية ملحمية شاعرية لها صدق الموقف الانساني والتزام الكاتب .

يبقى بعد كل ذلك ، وقبل كل ذلك ، الدليل الذي يؤكد وعي واستمرارية ( جمال الغيطاني ) الابداعية في كشف وتجسيد ازمة وامل الواقع المصري ، القادرة حركته المحاصرة احلامه ، الواقعة حياته وطموحاته ، في قبضة سرطان مخطط استعماري صهيوني رجعي ، يساعد على تنفيذه افلاس وخواء قيادة ( الطبقة الرأسمالية الطفيلية) المتحكمة في مصيره ، والتي تمكنت بفضل نفعيتها ، وسعيها لمصالحها الاقتصادية الوقتية ، من حصار وهدم السعي الدائم للاستقلال، وللتحول الاجتماعي،واستطاعت بفعل عناصر ومكونات الطبقة الطفيلية من ( سماسرة ، ووكلاء ، ومقاولين ) من تحويل شعارات ثورة ١٩٥٢ الى همهمة من شعارات الانفتاح ، والتهادن ، التي أوشكت ان تهدد استقلال وامن وأحلام مصر .

ان كل هذه الهموم والاخطار ، وكل هذا الندوب والتآكل يتبلور في اخر كتابات ( جمال الغيطاني ) في مجموعته الفذة ( ذكر ما جرى ) ١٩٧٨ ، حيث يصدرها الكاتب بدعاء من ادعية الصوفية ( الهي أنت عالم بحالي فهل من فرج قريب ) .. نعم ، وثمة ذهول وجنون ورعب يحدث في قصة ( ما جرى لارض الوادي ) حيث تكشف الوثائق القديمة عن مأساة بيع شوارع ومباني ومؤسسات مصر للغريب ، فيظل البيع من جسد الامة ، حتى يصل الى التفكير في بيع النيل ( لا يدري انسان متى بدأ ذلك ؟ لا يمكن تحديد سنة معينة او تاريخمحدد، لكن يذكر الكثيرون ان القلق كبر في النفوس ، بعد صدور المجموعة الثانية من الصياغات الاجرائية ، والتي أباحت حق تملك الاراضي بالنسبة للاغراب ) .. ولكن ، وكما تكشف الوثائق ، فقد تراكم السخط ، وتمت المقاومة ، وكانت النهاية التي يقرأ معنا الكاتب مستقبلها، ضد كل ما يدبر لمصر ( ان اتجه عدد لا يعرف مقداره بالضبط . ضم رجالا مسنين وشبابا واطفالا ، وعددا لا يحصى من نساء يحملن اطفالا رضع على صدورهن ، تجاورن ، وأمسكت كل منهن بذراع الاخرى . قيل ان بعض الامهات حملن اطفالهن بيد ، وألقمنهن اثداءهن ، بينما تلاحمن بجيرانهن . ودفعن بأجسادهن الى الخلف، لسد الثغرة وحجز ماء الغرق ) .

وتلك في اعتقادي صرخة تحذير بارزة ، تكررت في معظم قصص المجموعة ، مما جعل منها نوعا من أدب وفن التمرد الواعي ، الجدير بالمساهمة في معركة الانسان المصري الشريفة ، التي يجتازها الان في اخطر محن ومنعطفات تاريخية .

**القاهرة**